

في أي طريق تساق الحضارة؟

الازمة الاقتصادية : براعها واحتمالاتها الاخيرة

لاسهائل مشر

الثورة الصناعية وآثارها

كانت البيئة التي يعمل فيها الصناع مجلبة للهنائة والمسرّة . فكان المعمل عبارة عن حجرة متسعة في البيت ، ولها باب يفتح الى الشارع . وعلى الرغم من ان ساعات العمل كانت طويلة الا انها كانت تمر سراعاً لما يتخللها من التسلية والمناظر المتجددة على الدوام . فكان للحذاء او الحياط يتكلم في السياسة ويناقش في الحوادث وهو مكبّ على عمله . وكان التجار يستطيع ان يكلم جاره او عميله الذي قد يدخل عليه في اثناء عمله يطلب تكليفه عملاً ما . وكان الصانع قبل حدوث الثورة الصناعية واستفحالها فناً ، يخلق بفته بمميزات صناعية . فكان يضع تصبها طالباً ، ثم يأخذ في اخراج التصميم الى حيز الوجود ، وبحول ويدل حتى ينتهي الى سرورة تلام ذوقه وميوله او ما يكون قد أدرك في ميول الناس . ولا تنس ان الصانع اليدوي المستقل كان سيداً حراً يحدد ساعات عمله كما يريد ويبدل في حالات حياته كيفما يشاء ، كما كان يتولى على كل الرمح الذي يتمكن ان يخرج من مصنوطاته من غير شريك فيه

فما وفدت الآلة على المدينة احدثت تغيراً بل انقلاباً مرعباً في حياة العامل وفي مقامه الاجتماعي . فالآلة العظيمة مع ما يتبعها من آلات العمل الصغيرة اقتضت ان يجتمع عدد كبير من الصناع في بناء واحد يسمى المصنع . ولما كان من شأن الآلة ان تكون اقل تكلفة كلما كبر حجمها ، بدأ حجم المصانع يزداد في السعة . ولما كانت البقعة التي تلامم قيام معمل تسترعي اليها انظار الذين يريدون انشاء المعامل ، بدأت المعامل يزحم بعضها بعضاً في بقاع بعينها ، وبذلك اخذت المدن الصناعية في الظهور

وكان اول ظاهرة من ظواهر الانقلاب في حياة العمال ، تحول اساسي احدث في نظامهم الاجتماعي . فبدلاً من ان يظل العمال محتلمين مع بقية افراد الامة وهم جزء منها يتعاشرون ويتعاونون ويتقاسمون المرات والاحزان كما كانوا قبل بدء الانقلاب الصناعي ، اخذوا يعد حدوث ذلك الانقلاب يتجمعون في بيئات لها مؤثراتها التي كوّنت من العمال طبقة خاصة لها اوساطها ولها مصالحها ولها ميولها وخصائصها المنفصلة عن بقية المجتمع . وكان لا بد من ان يحدث

تجمع المال في بيئات خاصة حالات اجتماعية على اعظم جانب من الخطورة. فكان للعمال ما يشكون منه وما يتبرمون به في حالات الحياة . ومع مضي الزمن أصبحت حياتهم جحيماً لا يطاق ومن الانتلابين العظميين اللذين اتبنا للندية الحديثة : انقلاب الزارع من تابع حربي الى مستأجر يدفع مالا لتفناء البذل العسكري في بداة العصر الاقطاعي ، وانقلاب الصانع الحر الى عامل اجير صلب ارادته وفنيت في ارادة الآلة ؛ تكورت الاسس التي قامت عليها المدينة الرأسمالية ، رأس مال المالك الارض وعبيده للزارعون ، ورأس مال صاحب المصنع الآلات وعبيده العمال ، وقامت الحرب سجالاتاً بين الطبقات

امتحانات الازمة الاقتصادية

الازمة الاقتصادية الحاضرة وليدة امرين لا ثالث لهما . وليدة الامعان في التصليح من ناحية ، ووليدة الامعان في الانتاج من ناحية اخرى . ولا بد للتصليح من اموال تحمي واموال تكثر . ولا بد للانتاج من اسواق تستهلك فيها المنتوجات وحواجز جبركية تحمي الانتاج القومي . ولقد كانت الحرب المعظمى نتيجة لهذه العوامل . ولكنها اظهرت ان هذه العوامل تحمل في تضاعفها من عناصر الانهائ والتعظيم اضعاف ما تحمل من عناصر البناء والتشييد. غير ان الناس لم يظهروا على هذه الحقيقة الا بعد ان عمهم الخراب واخذت عوامل الافناء والتعظيم تعمل في مدنيتهم فتزها من اساسها وتهددهم بالخراب العاجل . نفي انحاء العالم فقر وجوع وتحفز ثورات والاقلابات الكبيرة، وفيها بجانب الجوع والفقر محمولات تزيد عن حاجته واموال تكفي لانوائه . فالعالم الآن يشكو الكثرة ويمرض بالاكنتاز . ولكن هل يمكن ان يستوى الجهد البشري على حالة ارادات الطبيعة ان تكون على غير ما هي كائنة ان التناقض الظاهر في حالات العالم يدل على ان الجهد البشري سوف يعجز عن محو كل السيئات التي كورتها الزمان في خالق هذه المدينة الصناعية القائمة على رأس المال . فكثرة تزيد عن الحاجة بجانبها جوع قاتل . واموال مكنترة تفي بالحاجة بجانبها فقر مدقع . وتحفز للحروب الطاحنة تغلي من تحت الثورات . وضرائب تحمي من لثيوب الطاوية لتعمر بها خزائن الذين عمرتهم الاموال - كل هذه للتناقضات تدل في اول ما تدل عليه ان الجهد البشري سوف يعجز عن معالجة حالة تناصرت على خلقها عوامل تطلعت في صميم النظام الحاضر واصبحت من دعاماته الاساسية. وهذا في الحقيقة هو عنصر الفساد الذي حملته المدينة الحديثة في تضاعفها كما ابدأ في صدر المقال، والذي سوف يجرئ بها الى النهاية التي كانت مصير كل حضارة من الحضارات التي سبقها كانت الاعتبارات الاقتصادية اعظم الاعتبارات التي كان من الواجب ان يعنى بها واضعو معاهدة السلم . غير ان هذه الاعتبارات اهلكت اهمالاً عجيباً في جر الخراب على الحضارة . فقد

بولغ في تقدير التعويضات أولاً ثم بولغ في تقدير الغرامة الجزية وبولغ ثالثاً في تعيين الوسائل التي تؤدي الى تسديد ديون الحرب . لم يراع الذين وضعوا قواعد السلم الاقتصادية مقدرة الام على الدفع ولا قدروا ان لشعوب زعات، يخرج عن طوق الحكومات مهما قوت ان تحتكم فيها . فكانت النتيجة ان كل القواعد التي قامت عليها قواعد السلم الاقتصادية قد انهارت واخذت الام تملن افلامها بتوقفها عن الدفع ، حتى فرلنا التي تجمع خزائنها من الذهب مقادير لا يحصرها الزم

وبقدر ما املت الاعتبارات الاقتصادية في معاهدة السلم روعيت الاعتبارات الاثنولوجية من دون ان يحس للروابط الاقتصادية التي كانت تربط الامبراطوريات المنحلة اقل حساب . وعمدت معاهدة السلم الى الوحدات الاثنولوجية تكوّن منها وحدات سياسية جديدة تمنعها استقلالاً سياسياً تاماً مقتطعاً من جسم الامبراطوريات المنحلة . ولكن عجزت بالضرورة وكما هو محتوم عن ان تضمن لهذه الوحدات استقلالاً اقتصادياً . فكانها انشأت دولات ذوات صفات سياسية من غير ان يكون لهذه الدولات حقائق اقتصادية . فضافت بذلك الى اخطائها الاول في وزن الاعتبارات الاقتصادية خطأً جديداً لم يكن منه بد ما دامت قد عمدت الى تطبيق عهد عصبة الامم في اوروپا . فأخذت هذه الوحدات او بالاحرى الدولات ذوات الصفات السياسية تعمل على تحقيق استقلالها الاقتصادي فأعمت في ضرب الضرائب ، ثم عمدت الى الطواجز الجمركية لتحسي منتوجاتها الصناعية ، فذت الاسواق وخنقت سبل التجارة أخذاً وعطاء . وزاد هذا استحكام الازمة فأحاطت بالحضارة حالات غير طبيعية لا يد من ان تنهي الى حالة جديدة بغير جدال

على ان هذه الحالات قد صحبها ظواهر تدل واضح الدلالة على ان معين الحياة في حضارتنا الحضارة قد نضب وانه لا يد من ان تغذي الحضارة روح جديدة تكوّناتها تكوينا آخر وتعيد بناءها على صورة اخرى . فقد رأينا كيف تحول المصنع المستقل الى معمل غير مستقل وكيف تكونت المعامل فكانت مدناً صناعية اساس حياتها التعاون وكيف احدث تأسيس المدينة الصناعية الحاجة الى الاسواق والتعاون بين المنتج والمستهلك . والآن تعود المدينة الرأسمالية الى الظاهرة الاولى التي قامت عليها . تعود الى الدولة المستقلة استقلالاً اقتصادياً ، فكأنها تحاول ان تبدل المصنع المستقر قبل قيام عهد الآلات بالدولة المستقلة ، تعود الى حياة احاسبها التافس لا التعاون والمجر على حرية التجارة لا العمل على التعاون التجاري . وفي هذا دليل على ان صورة المدينة للحضارة القائمة على رأس المال قد نجزت وفقدت المرونة الاولى التي قامت على التعاون في فتح الاسواق وتوزيع الثروات توزيعاً يتناسب مع المنتج من المصنوعات ليتمكن استهلاكها . ومن وراء ذلك تهدر الشعوب بهدير الثورة بل الثورات التي هي لا بد واقعة

ولكن تنقيح المدينة على وجه جديد يتحقق مع إمكان القضاء على سيئات عصر الانتاج الصناعي ، في حين ان نظام المدينة التي سوف تتبعه هذه الثورات سيحصل في تضاعيفه عناصر الفساد التي تبدأ لتعمل على احباط ما سوف تنشئه من مدينته ، كما كانت تحيط عناصر الفساد التي حملها نظامنا الحاضر ما يقوم حولنا من حصاره . سنة الاجتماع ولن نجد لها تبديلاً

الازمة الروحية

في عصور الانتقال التي تظهر فيها عادة نتائج العوامل التي تكونت على مر الاجيال، تصاب الجماعات بازمات نفسية عميقة الأثر . في خلال العصور التي نشأت فيها الاديان الكبرى ظهرت تلك الازمات الروحية بأعظم مظاهرها . فقد اصاب العالم الوثني ازمة روحية قبيل ظهور الدين الموسوي ، واصابت أخرى قبيل ظهور الدين المسيحي واحاطت بالعالم النصراني ازمة روحية شديدة قبيل ظهور الدين الاسلامي . وكذلك تجد الحال قبيل ظهور الانفجارات الكبيرة في التاريخ الانساني ، فالجروب الصليبية نتيجة ازمة من تلك الازمات الروحية التي تأخذ بمخناق الشعوب ولا تعرف لها من باعث حقيقي اللهم الا البواعث المباشرة التي يزعم المؤرخون بأنهم استطاعوا ان يعللوا بها الحوادث العظمى في التاريخ ، في حين ان بولسها اعترق غوراً وأبعد عن ان يتناولها البحث السائب الذي تسبح مقدماته فتصح نتائجها ، ويكون لها من الثبات ما للنتائج العلمية . على ان العالم المتسدين الآن مصاب بأزمة من تلك الازمات الروحية التي لن يفلت معها النظام الاجتماعي من انقلاب قد يعظم او يقل خطره على مقتضى الاحوال التي تلابس الانقلاب في اغلب الامر

من مظاهر الازمة الروحية التي اصابت المدينة الحديثة وبالأحرى مدينة الانتاج الصناعي شعور كل طبقة من الطبقات المختلفة شعوراً حقيقياً بأن نصيبها من السعادة مهزول لا قيمة له . يتبرم صاحب رأس المال بما يملكه من المشاغل والمتاعب ونجده في قرارة نفسه يشنئ لو ان الحياة تجبوه قليلاً من رضاء البال وراحة الضمير وأن تقيم بينه وبين متاعب المال حائل لا يحقق له بعض السعادة التي يشدها . هذا في حالة الفردية . فاذا رجعت الى طبقة اصحاب الاموال باعتبارها كلاً اجتماعياً تقع على طبقة مشتركة المصالح تعمل من غير انقطاع على تدليل سبيل الجمع والاكتسار وكانهم جنود في ميدان حرب من تأخر منهم حطمته الاقدام وزرقت سنابك الخيل ، فيجد ويعمل ويدل الليل بالنهار ليستطيع مسايرة القافلة في هجومها على بقية طبقات المجتمع لتستلب منها بمقدار ما يُضمن لها البقاء في سمت خاص من مراتب النظام الاجتماعي ، اتخذت المال سبيلاً الى اعتلائه ، ثم اخذت تعتقد بأن السمت هو نصيبها من الدنيا وحظها من الحياة بل لا يبعد ان يقرب اعتقادها هذا من اعتقاد الملوك في القرون الاولى اذ كانوا يؤمنون بأن سلطتهم مستعانة من الله ، والآن لم يخلقوا ملوكاً . وفي هذا من روح التعصب

والجود ما يكفي لاحداث لزمة نسبية مفشؤها اعتقاد الطبقة العليا من المجتمع الرأسمالي أنهم المختارون دون بقية الطبقات

وبجانب هؤلاء طبقة العمال المستعبدين واقعاً، الاحرار قولاً. وهؤلاء يؤمنون بأن الطبقة الاولى هي السد الحائل بينهم وبين السعادة وانهم العقبة التي تمنع عنهم سبل الحياة على ما يجب ان تكون الحياة الانسانية. وهؤلاء بطبيعة مقامهم في نظام الاجتماع هم جيش الهجوم، كما ان الاولين جيش الدفاع. ثم انهم يعتقدون ان رؤوس الاموال والثروات العاملة لهم فيها حق لحق الذين صنعوا عليهم طرق الاستتاع بها، فينظرون الى ما في يد الاغنياء كأنه جانب من مالهم وشطر من متاعهم الذي يجب ان يوزع على الجميع، وان الملكية مبدأ وضعه اصحاب الاملاك ورأس المال ازل منزلة الفداسة من القانون لان اصحاب رؤوس الاموال هم الذين يشترعون للجميع، وان مبدأ الملكية ورأس المال مؤامرة غير مشروعة يعترض بها الذين ينتفضون به ليسلبوا من لا مال لهم كل ما يزيد عما يند الرمت ويحفظ الارواح في الابدان. ومن الملكية ورأس المال وتتمير الاموال المكثرة تقوم الدولات العظمى على اسسها الحربية فتستبيح العمال والزرع بأقصى ما يصل جهدهم ليلقموها بشمرات ما اخرجوا بسواعدهم وقوتهم، بل وبأجسامهم وارواحهم الى الحديد والنار، دفاعاً عن الملكية وعن رؤوس الاموال التي لا يعرفون منها الا الاسم دون المسمى والخبر دون الخبر. وهذه حالة من الفكر تحدث بلا ريب اتسى الازمات الروحية التي نهز اسس المدينة الحديثة

ثم من وراء هذا تقوم مؤامرة متسعة النطاق بين السياسيين واصحاب الاموال. يسخر كل فريق منهم الفريق الآخر في سبيل شهواته، فالسياسيون يسخرون اصحاب الاموال بنفوذهم، واصحاب الاموال يسخرون السياسيين بأموالهم في الحكومات وفي السياسة العالمية لان السياسة الحسنة، كما يقول سياسي فرنسوي، تستدعي مالية حسنة، والمال من شأنه ان يحتاج الى قوة تقيمه ككيد من لا مال لهم. فالمؤامرة بين السياسيين واصحاب الاموال ضرورية بحكم الظرف الاجتماعي. ولكن ضد من تتجه هذه المؤامرات بكل سرورها؟ تتجه بالطبع ضد الذين لا مال لهم وضد من لا نفوذ لهم في سياسة العالم وتدير شؤون الدول فيضحي اصحاب الاموال والسياسيون اليد المحركة، ويظل بقية الناس الاداة المنفذة، في معمعان حرب وجلاد لا ناقة لهم فيه ولا جمل. وهذا من شأنه ان يحدث الازمات الروحية المعقدة التي يشعر معها الناس ضرورة بأن اسس المدينة ان لم يكن قد فسد بالفعل، فلا اقل من ان يكون الفساد قد دب فيه الى حد يستدعي عمليات حاسمة من البتر والرتق ومن القطع والوصل، واي طريق يمهّد لهذا غير طريق الثورات الصاخبة والنفوضى الآكلة؟

أضف الى هذا ان الناس أصبحوا ولا ثقة لهم بالثاليات التي اتخذها السياسيون ذريعة

لتأثير في الدهاء ومامة الشعوب تنفيذاً لاغراض خفية ، ان صمي على الشعوب ان يعرفوا شيئاً من ماهيتها في الماضي القريب ، قال نجاريب نيف وربع من القرن اعشرين ، قد كنت لان تجعل الناس يشعرون شعوراً عميقاً ثابتاً بان تلك الخياليات لم تكن الا حياضاً نسبت واشراك وضعت لاستغلال عطف الجماهير من مريق التأثير في مشاعرهم واستهواهم بالالفاظ التي لا تحمل من المعاني الفعلية اكثر مما في قلوب الذين يكثرون من التثوه بها من الايمان بمحقيتها . فالشرف الوطني والمجد العالمي ودولة كذا فوق الجميع ، اصيحت لا تزيد في قيمتها شيئاً عن الكلام الذي ينشره التجار عن سلهم في صفحات الجرائد . وكان مثل الناس في ذلك كمثل المؤمن الذي يسجد لضم الف سنة طويلة عسى ان يجوه الغفران ، فلما مات وانتقل ال العالم الآخر ، تلقفته الزبانية ، فلم يستق الا وهو في سفير يسلى لقاها . فكانت الصدمة على قدر الايمان والاستماعة على قدر الغفوة الطويلة التي اسلم فيها الشعوب قيادها لمهزة الانتهازين الذين استطاعوا ان يحكموا المؤامرة من كل اطرافها ، ولكن ليصلوا في النهاية بحسبهم وطماعتهم ال احداث ازمة روحية تعلى في الصدور

ناهيك بان هذه الحالة قد عتمتها حالة اشد شناعة منها . عتمتها اضمحلال الفكرة في المثاليات الاخلاقية . حتى لقد اصح الكذب والنفاق والمختل والمواربة والحياة لكثرة ما روج لها السياسيون في العصر الحديث ، طابع الخلق العلي . وعلى جذو السياسيين حذت الشعوب والافراد . فالصادق هو الكذاب الاشر في جماعة لا تعرف الا الكذب . والرجل الحر هو الصبد الايق في جماعة لا تعيش الا بالعبودية . والرجل المستقيم الفكر هو المنافق المختل ، في جماعة طابعها النفاق والمخاتلة . والرجل الامين هو الخائن في جماعات ما عرفت الا الخيانة وما قدست الا الضلال

لقد سعدت الجماعات فيما مضى باحلامها اللذيذة . سعدت بان في العالم شيئاً يقال له الشرف وشيئاً يقال له العشق وشيئاً يقال له الحق . وآخر يدعى الحقيقة . تلك كانت احلاماً . ولكنها نزلت في النفوس منزلة الواقع الملم به . فكان المعتقد ان هذه الاحلام لها حقائقها ولها آثارها الخارجية . فسبق الناس بها . ولكنهم كانوا على الاقل مؤمنين بها ولو باطلاً . كان الناس يؤمنون مطلق ايمان ولو بشيء باطل . ولكنهم الآن يشكون ، لا في هذه الاحلام وحدها ، ولكن في حقائق الحياة ذاتها . يشكون في الحق ويشكون في العشق ويشكون في الحرية . وهذا الشك وحده كاف لان يحدث ازمة روحية كفيفة ان هي ارادت ان تنفس بان لا تتوكل في المدينة الحاضرة قائماً ولا صعيداً

تلك هي بعض الآمار التي تترتب على قيام توجه الاقتصادي في اوجه المدينة ، بكل مقتضياته من مال وملكية وسياسة . ففي اي طريق تساق الحضارة ؟